نظرات في النفس والحياة

— ١٧ —

تكملة نظرات جوتا

يحتفي الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى (جوتا الألماني) ولقد سادت ألمانيا هزة كما كانت في عهده. وكان (جوتا) ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التي عدّها نقائص الإنسانية. وكان في صباه قد اشترك في الحملة على الثورة الفرنسية التي تمخضت عن الجمهورية الفرنسية الأولى. وكان (جوتا) يرغب في السلام العالمي الذي ينشده العالم الآن، كما كان راغباً في ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو. ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه. ولم يكن (جوتا) من طبقة الأشراف، بل أسبغ عليه صديقه أمير ويمار لقب الشرف. وقد ذكرنا في المقال السابق أنه في شبابه ألّف قصة (أحزان ورتر) التي اشتهرت في عهدها كاشتهار قصة (كلاريسا هارلو) لرتشاردسون الإنجليزي و(هلواز الجديدة) لروسو، وكانت على طريقة (السنتيمنتالزم). ولقوة أثرها في النفوس حاول بعض الشبان التشبه (ببطل) القصة. ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميداً. اتسع نطاق فكر (جوتا) ونطاق نفسه [illegible] وبالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة، إلا أنها كانت ممزوجة بالرغبة في التجربة والخبرة صنيع العالم المجرب. وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة في الخبرة وهذا التنازع كان في كل الأمور، ومن أجل ذلك كان أديباً وكان عالماً. وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكي وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما في قصته (هرمان ودوروثيا)، كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفي أو إلى الخيال الرمزي، كما في بعض أجزاء القسم الثاني من (فوست) المسمى (هيلينا). والحقيقة إنه كان يشعر بلذة فنية في تجربة كل نوع من الثقافة والأدب، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شراً التي مطلعها

إنّ بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها (جوتا) إلى الألمانية لإعجابه بها. وهذا كما ورد في كتاب (تاريخ العرب الأدبي) للعلامة نيكلسون الانجليزي . و(لجوتا) ديوان سماه (ديوان الغرب والشرق) يحاكي فيه بعض الشعر الشرقي، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لإرادة الله في كل شيء، فقال هذا ما ينبغي أن يكون عليه كل إنسان . وأنصف حكمة في هذا الموضوع . وقصص (شيلر) التمثيلية على العموم أوقع . إذا قارنا بين قصص (جوتا) أمثال (اجمونت) و(تاسو) و (جوتز) و (افيجنيا)، وبين قصص (شيلر) أمثال (وليام تل) و (ماري ستيوارت) و (وللنستين) و (دون كارلوس) و (اللصوص) .

وقد ترجم (كارليل) قصة (جوتا) النثرية المسماة (ولهلم مايستر) إلى الانجليزية، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها . والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث والخالفة الوضعية، ولم يتعمد بالثقافة الزهد، فقد كان (جوتا) زاهداً في الزهد بل كان يراه مؤدياً الى ضيق النفس والتفكير، وربما كان يعني بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة .

وكانت روح (جوتا) روحاً عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم، حتى إنه أبى أن يكره الفرنسيين في عهد نابليون عندما غزوا ألمانيا. وقال لاكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتي، والثقافة هي كل شيء . وقال (أوسكار وايلد) في رسالة (الناقد صاحب الفن) : كان جوتا أول من جرأ وجاهر بهذه الفكرة العالمية، وسيزداد أثرها في إنعام حتى تؤدي إلى ترجيح الانسانية، وعجز النقد الفرق الخاصة، ويقرب توحيد العقل البشري على اختلاف أمكنته، وقد نقده بعض الأدباء نقداً شديداً كما فعل مينزل، وبعضهم كان نقده يخالطه الإعجاب به مثل نقد هيني الشاعر الألماني .

وفيما يلي تكملة لما أختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق : —

(١) كل إنسان له أخطاء وصفات نقص أو عيوب لولاها ما وجدت شخصيته وفرديته التي يمتاز بها، ومن أجل ذلك نأسف في بعض الأحايين إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدماء، إذ لولاها محيت شخصيتهم وصاروا أناساً آخرين . فإذا تخلص أصدقاؤنا منها مرة وانتقدناها فيهم أنكرناهم، وقد نشعر بقلق إذ نشعر بغير المألوف منهم . والواقع إن

هذا ليس في الأصدقاء فحسب، فإن الحياة كلها مثل حجرة عُلِّقَت صور على جدرانها، فإذا أزيلت بعضها من مكانها رعنا أحسسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء.

(٢) ان الإنسان قلما يستطيع إن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم؛ لأن كلامهم عبر خلال احساساتهم وخوالج نفوسهم، ولو استطاع الانسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم، لتجنب كثرة الكلام، كي يَسْلم من حنث أو خطب.

(٣) إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة، وإذا ضيع من بعضها استحدث أخرى، فهو يظهره بضحكه أو ابتسامه أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة. ومهما كان الأمر الذي حرَّكه الى الضحك أو الإبتسام بعيداً من موضوع إعجابه بنفسه، فإنه يُظهر في ضحكه أو ابتسامه إنه مسرور بنفسه راض عنها، معجب بها، والرجل الذّكي قد يرى أموراً كثيرة في الحياة تستحق الضحك والسخر، ولكن الحكيم إذا تدبر مآسي الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الانسان فيها مهما كان قادراً وصولة القدر. إذا تدبر كل هذه الأمور، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه.

(٤) مما يدلُّ على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم، فهم يفضلون أن يُعاقَبوا، وأن يظلوا عليها إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب. وهذا يظهر في حياة الصغار كما يظهر في حياة الكبار.

(٥) من الغريب أنك تجد في بعض الأحايين شباناً يتفق أنك لا تكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجاراة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التي تتقاذفها الأمواج، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم، ولا سيما أن الشباب مندفع بطبعه، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيراً ما يختفي تحتها قلة الثقة ببصيرته التي لم تكتسب بعد من تجارب الحياة، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خطاهم وأعمالهم بسبب ذلك.

(٦) من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة ، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف في النفس الذي يضيع الحياة سدًى ، ويقضي على مسرّاتها ، ولا يقتضي إتفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الإنقياد الجارف الذي حُذّر منه في النظرة السابقة .

(٧) ليس من السهل أن نصيب العدل في قَدْر فضل الساعة التي نحن فيها ، فإذا كانت خيراً أوجبت فرحاً ، وإذا كانت شرًّا حملتنا ثقلاً وهمًّا ، وإذا كانت لاخيراً ولا شرًّا كانت مللاً وسأماً ، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حبًّا للراحة ، وخلاصاً من المشقة في الحالات الثلاثة إلاّ من شذّ في النفوس غير الموفقة عمداً أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد .

(٨) إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد في النفس ، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها إتصالاً قليلاً أو كثيراً . ومن أجل ذلك ينبغي الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه .

(٩) مما يدعو إلى الأسى ان الناس يزهدون في الحق لا لأمر إلاّ لأنه معروف متداول مألوف ، والألفة تبعث الملل ، وهم لا يفطنون إلى انه بالرغم من انه معروف ، لا يستطيعون تطبيقه في الحياة وإنجاحه وتحقيقه ، فهم يشق عليهم في العمل وإن كان لا يشق بعضه في الفكر ولعلّ هذا أيضاً من بواعث الزهد فيه ما دام يصعب ويكلف النفس ألماً ومشقّة .

(١٠) إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته ، أما إذا تريث وجعل يفكر فإنه يعطي لضميره فرصة لاستعادة حريته — هذا إلاّ إذا كان التفكير في تهيئة الأعذار التي تسوغ عمله ، فإن هذا التفكير لا يعطي ضميره حريته .

(١١) إذا أصغيت إلى إنسان ، فإنه قد يكون مخطئاً مخدوعاً ، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين ، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين . ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك انك أصبت الصواب في قولهم ، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم ، بل إنه يصعب حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة .

(١٢) إذا استحسن الناس مبدأ أو رأياً في الحياة واعتقدوه لا تلبث محاسنه مع مضي

الزمن أن تزول . وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوء الأخذ به ، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه ، ولكن عند ما يقضون عليه يقضون على النظام الذي لا تستقيم حياتهم إلا به ، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجاً بقليل من التجميل والتحسين . وعلى ذلك فالجهد الذي يبذل في سبيل التغيير والإصلاح ، أكثر من التغيير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات .

(١٣) معرفة الخطأ أسهل من الوصول الى الصواب ، فليس كل معرفة للخطأ تؤدي إلى الصواب ، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور ، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه . ومع ذلك فإنه بعد تعذُّر معرفته إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع ، وبغتة الأمر المعروف المنسي ، مع انه لم يكن معروفاً ولا منسيًّا .

(١٤) إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذي يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها ، أشقُّ على العقل والنفس من فهم الرجل الذي كل فكره خطأ .

(١٥) إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة في اعتقاد السوء ، صرفتهما تلك الرغبة عن تبيُّن أعماق الحياة فلا يصلان الا الى سطح الأمور . وهو أمر صحيح في العلم ، كما هو صحيح في الأدب ، فما استطاع الشاعر العالمي (شكسبير) مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم ، الا بأن يضع نفسه مكانهم كي ينظر اليهم بالعطف ، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم ، وهو قلما يشذ في ذلك إلا في قصصه الأقل جودة

(١٦) اننا نستطيع أن نُغفل مناقضة لنا من غيرنا ، أما اذا أتت المناقضة لنا من نفسنا والحسّ ، كان كل ما نستطيع عمله أنْ نصحح تلك المناقضة أو أن نصحح نفوسنا ، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمراً عسيراً ، فإن النفس تحتاط حتى لا تتقحَّم عليها مناقضة لها من نفسها ، وللنفس وسائل عديدة في هذا الاحتياط .

(١٧) ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة انساناً قويّاً ، فلا يكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المذّراة وأثرها في أعواد حبات الحنطة ، فانها تنزع الحبات . ولكن تلك الحبات لا يهمها أتعود فتزرع كي تستثمر محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذاء وقواماً . وكذلك ما تستنبطه المصائب من الرجل القوي العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال

تكون دائماً صلاحاً لنفسه يشترك به قارط أمره أو صلاحاً للناس. وبعكس ذلك ما تستمه من الرجل الأخرق أو الضعيف، وهذا مثل أعلى قلما يعيبه انسان، ولكنه اذا كان دائماً نصب عينيه، ربما أصاب بمضه اذا كانت نفسه هوائية له

(١٨) إننا نرتاح للأمور الوسطى، ونقبل على من كانت ملكاته في حدودها لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب الينا منزلة وشبهاً، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها.

(١٩) إن الكفاح بين القديم الموجود، وبين الاصلاح والتجديد، كفاح دائب أبداً. وكل نظام اذا اعتوره الفساد دُفع قهراً الى ضده. وهذا مشاهد في الأدب كما هو مشاهد في الحياة عامة، مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة، وأنصار نظرية تأميم الأرض أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة وأنصار حماية المنتجات المحلية. وهذا الكفاح هو تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن.

(٢٠) الحرية المطلقة أمر غير مرغوب فيه، فلا عيش ولا صلاح للناس معها لأن الناس إذا تحرروا من كل التقيد تحرروا أيضاً مما يمنعهم من الخطأ، ومما يردعهم عن الشرور — وهم اذا طلبوا الحرية المطلقة، انما يطلبون نظاماً جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة الا بعد أن يكتووا بنارها، ويصطلوا الويل منها، وبعد أن يعثروا في الأخطاء الناشئة من الافراط أو التفريط.

(٢١) السعيد هو الذي يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها. فاذا لم يؤد العمل لجمع المال الى الهم والقلق كان من عمل السعيد. أما إذا أدى الى الهم والقلق لم يكن العمل لجمع المال طريق السعادة، بل طريق الشقاء فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة، ومن خشية الفقر، فمن استطاع أن يخلي نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً واذا لم يستطع كان فقيراً.

(٢٢) كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة، يراه الرجل العظيم فناً جميلاً، فهما كان خادماً لحرفته أو صنعته ملتزماً لها، فهو خادم لفن جميل. ومثل هذه الخدمة واجبة في كل إنسان سواء أكان كبيراً أم كان صغيراً في مقامه ومرتبته. وإذا عمل الإنسان عملاً واحداً بصدق وإتقان، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل ما عمل عمله بصدق وإتقان.

(٢٣) لكل إنسان عمل يشبه طبعه وطريقته، فإذا حاول الإنسان أن يعمل ما ليس في طبعه ونفسه أخفق ولم يُجِد، ولا ينبغي أن يُطلب من الرجل عمل ما لا يشبه طبعه

ونفسه ، لقد طلب مني أناس أن أنظم قصائد إثارة البغض فكيف أصنع ذلك وليس البغض من طبعي .

(٢٤) لا شيء يدعو الى التزام جادة التفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس، والتزام ما يلتزمونه ، ولا شيء أدعى إلى ما يشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التي يحياها الناس، ومن الخروج على فروضها ونظمها .

(٢٥) التجارب والخبرة لا حدَّ لها ، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل . ومن أجل ذلك كثيراً ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرة وتجارباً .

(٢٦) إن أغلاط المرء في الحياة قد تكلفه عناء كثيراً ، وتوقع به ضرراً بالغاً ، ومع ذلك لا يستطيع أن يثق أنها استنفدت كل عواقبها، فإنها قد تكون لها عواقب قصيات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقاباً كافياً — ومع ذلك فالنسان عامة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط، ولا يعرفون ما هو عِبرة لهم، كما قد لا يعرف ذلك الكبار .

(٢٧) في الفكر كما في العمل ينبغي معرفة حدود ما يستطاع الوصول إليه كي لا تضيع جهود المرء سدًى ، ومع ذلك ينبغي أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهول الذي لا يستطيع فهمه ، وإلاَّ قصَّر في أمور كثيرة في بحثه ، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث الى كشوف كثيرة ما كان يتوقعها .

(٢٨) إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها، فاعلم انك ستدفع ثمناً غالياً لهذه الخطة ، ولا تحسبنَّ أنك اقتصدت ، والناس اذا أرادوا الغبن قالوا لا شكر على واجب .

(٢٩) إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه اذا زاد التأثير عليهم عن حدٍّ معين لا يخفق هذا التأثير في إحداث رد فعل يؤدي إلى مخالفة وعناد . ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مموهة بالتسرع في الحكم على الأمور بأحكام غير ناضجة . ولا بدَّ أن يمضي زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناد — والمدرس الفطن هو الذي يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذي يؤدي بعده التأثير الى المخالفة والعناد . ويعجبني خطة بعض المدارس الإنجليزية التي تكل أكثر أمور التلاميذ إلى التلاميذ أنفسهم، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام ، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية ، كما إنه لا يحس تلك السيطرة القاهرة التي تؤدي إلى العناد .

(٣٠) إذا أراد الانسان أن يركن إلى خبرة غيره ، ينبغي أن يتذكر أن ذلك الآخر المختبر قد أصبح بينه وبينه حاجزان : حاجز نفسه وحواسه ، وحاجز نفس من عركن

إلى اختياره، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين .

(٣١) إذا فقد الانسان الفهم الأساسي العام ظن أن كل ما يشتهيه أمر ضروري وإن كل ما يسره أمر نافع، فيقيس الأمور بقياس باطل .

(٣٢) لا يستطيع الانسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته، ومع ذلك فان هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق . فانها تحافظ على أمور كثيرة ينبغي أن تزول، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغي أن تصان، فهي سبب عدم تقدم الانسان.

(٣٣) بعض الناس كانوا يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمراً مكذوباً أو باطلاً، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كي يصدقه الناس فتتدلى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم.

(٣٤) لا يمتاز الانسان بالفضل على خصومه، اذا لم يستطع بالفضل بمعرفة فضلهم، والانسان لا يستطيع أن يشغل نفسه بكل انسان، ولا أن يعيش مع كل انسان، فينبغي إذاً أن يعز أصدقاءه، وأن لا يكره وأن لا يضطهد أعداءه، أو من وضعهم موضع الخصوم .

(٣٥) قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يُطلب من الناس أداؤه، وبعدها صار كل أمر مطلباً للناس يطلبونه، وهذا يذكرني نقد (مازيني) للثورة الفرنسية إذ قال إنها جعلت الناس تنظر الى حقوقهم، والى طلب تلك الحقوق، وصرفت الناس عن واجباتهم — وربما كان في هذا القول مبالغة، الا اذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عاماً .

(٣٦) المخدوع بقول غيره أو عمله إنما كان مخدوعاً، لان في نفسه صفات مكنت الخادع منه، فالمخدوع إنما هو الذي خدع نفسه بسبب ذلك .

(٣٧) الحصاد أشق من نثر البذر في الزراعة، وكذلك في الحياة تزداد المشاق كلما قارب الانسان مقصده الذي يسعى اليه، وكذلك في الفنون كلما ألمّ بها الانسان وتعمّقه فيها، عرف صعوباتها . وأما المبتدىء فيها غير الماهر فيها، فهو أكثر اغتراراً بها وبالقدرة على التبريز فيها .

(٣٨) السعادة هي الاستسلام لارادة الله، فنتقبل كل ما يصيبنا كأنه ناشىء من ارادتنا .

(٣٩) سبب تحرز الفن النفوس، فان أساسه عقيدة وإيمان، ومهما خالطه من الفكاهة فان أساسه الجد .

[للبحث بقية] ع . ش